المحاضرة الأولى (الجزء الأول):

مدخل الى السرديات العربية الحديثة والمعاصرة

تمهيد:

يعد التقعيد للمصطلح والتأسيس للمفهوم في أي بحث علمي ضرورة إبستمولوجية، وهدفا رئيسا يعمد إليه الباحث في رصد المعالم التي يبين في ضوئها ماهية ما سيشتغل عليه، بل ويصبح هاجسه المعرفي الذي تقتضيه دواع ذاتية و موضوعيه، باعتباره المحدد الرئيس للإطار التي يستند اليها البحث، الضابط لمساره، والدافع به نحو ما يرونه.

وللتوصل الى أهداف مناسبه تتماشى وطبيعة ما سنشتغل عليه من ماده علميه في هذا السداسي تقتضي المنهجية الانطلاق من عنوان المقياس ذاته "السرديات العربية الحديثة والمعاصرة" تفكيكا وتفسيرا وذلك للتعرف على أهم مما يتضمنه من بؤر دلالية رئيسيه من شانها أن نستشف من خلالها المعالم الكبرى التي تبنى عليها ماده المقياس، والحدود المعرفية التي تؤطرها.

1- مفهوم السرديات العربية الحديثة والمعاصرة:

يتشكل عنوان المقياس من مركزين دلاليين "السرديات العربية" /" الحديثة و المعاصرة"؛ حيث تشير الأولى إلى كل ما له علاقة بالسرد مثل القصة الرواية المسرح ، أما الثانية فتحيل إلى الفترة الزمنية التي تؤطر هذه المادة، وفيما سيأتي تفصيل مفاهيمي لما جاء مركبا في المركزين:

1-1- مفهوم السرد

ورد في لسان العرب بأن السرد هو تقديمة شيء إلى شيء نأتي به منسقا بعضه في أثر بعض متتابعا، سرد الحديث ونحوه يسرده سردا إذا تابعه، وفلان يسرد الحديث سردا إذا كان جيد السياق له(...) وسرد القرآن تابع قراءته في حذر منه (...) وسرد فلان الصوم إذا والاه وتابعه[1]، أما معجم العين فقد أورد فيه الفراهدي تحت مادة سرد: سرد القراءة والحديث يسرده سردا أي يتابع بعضه بعضا.

من خلال هذا التوصيف اللغوي للمفردة حسب المعاجم العربية أمكن القول بأن السرد يقتضي بالضرورة دلالة التتابع والانتظام، وحضوره الاصطلاحي يقتضي ضرورة هذه المداولات، وكأي لفظه عربيه تحمل مخزونا ثقافيا كبيرا وقدرة على المطاوعة الدلالية، فقد اتسع استخدامها العربي ليشمل كل مجال يتوافر فيه التراتب والنسج والنظم والتتابع.

أما من الناحية الاصطلاحية يكتسي مصطلح السرد بدلالات مختلفة بحسب مجال الاستخدام ، فالسرد من منظور تلفظي هو:" النشاط السردي الذي يضطلع به الراوي وهو يروي حكايته ويصوغ الخطاب الناقل لها"[2] ، وهو من زاويه الخطاب "طريقه مخصوصه في تقديم الحكي، أما من ناحيه الصناعة فهو يأخذ دلاله أوسع و أشمل فيطلق فيها:" على كل ما يتعلق بالقصص أو هو خطاب قصصي أو حكاية، وهي الدلالة المقصودة تحت عنوان هذا المقياس الذي وردت فيه اللفظة بصيغه الجمع (السرديات العربية الحديثة والمعاصرة).

1-2- في مفهوم لفظتي" الحديث والمعاصر"

حين نتحدث عن لفظتي الحديث والمعاصر نجد أنفسنا داخل إطار إشكالي يجمع الأدب العربي بكثير من الفروع المعرفية الإنسانية الأخرى، كالفلسفه وعلم النفس وعلم الاجتماع وعلوم التربية... وهي جميعا تتنازع في دلالة الاصطلاحين، وتقدم في المسالة كثير من الآراء ووجهات النظر بحسب الموقع والتخصص، وهي الآراء التي يمكن أن نجملها في قسمين رئيسيين هما:

---

[1] ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت – لبنان، (دت)، مج 03، مادة سرد، ص 212.

[2] المرجع نفسه. ص: 243

الراي الأول: لا يرى أصحاب هذا الموقف أي فرق بين الحديث والمعاصر فهما بالنسبة اليهم مصطلحان بدلاله واحده مترادفان، تخلقا بطريقه عفويه لمسمى زمني واحد يبدأ بدخول نابليون بونابرت مصر سنه 1798 الى غايه يومنا هذا.

الراي الثاني: يذهب أصحاب هذا الموقف الى القول بأن "الحديث" يبدأ من حمله نابليون على مصر 1798 (و في هذا يتفقون مع أصحاب الرأي الأول) وينتهي بنكبه 1948، ليبدأ عصر أدبي جديد واكب مستجدات ما بعد النكبة وهو ما أكسب نصوص الأدب التي لم تخرج عن سياقات انتاجها الجديدة خصائص فنيه مغايره جعلتها تدخل حيزا زمنيا حمل لفظة ودلالة المعاصرة.

وعليه يقاس مصطلح الحديث عربيا بداية من تاريخ حملة نابليون بونابرت على مصر (1778 -1801) وما جاء بعدها من مضامين فكرية وقوالب فنية جديدة جاءت معها قوالب سردية غربية ضمن أجناس أدبية معروفة اليوم منها: الرواية، القصة القصيرة ، المسرح، فتعرّف عليها العرب عن طريق **الترجمة** أولا ثم عن طريق **التأليف**، كما لفت هذا السياق النهضوي الذي قام بعد حملة نابليون انتباه العرب إلى إحياء تراثهم السردي من مقامة وسير شعبية.

2. نشأة السرديات العربية الحديثة و المعاصرة بين التقليد والتعريب

يقصد بالسرديات[1] العربية الحديثة والمعاصرة مجمل طرق الحكي وتقديم القص والمرويات ضمن القوالب والأجناس والأنواع الأدبية في الفترة الحديثة والمعاصرة للأدب العربي ، وبعد حملة نابليون تعرف العرب على أخر ما توصل إليه الفكر والأدب الغربي و ظهور القوالب السردية للحكي في شكل أجناس أدبية كالرواية والقصة والمسرح. كما لفت هذا الأمر انتباه العرب الى إحياء موروثهم السردي و القيام بنهضة ثقافية و فكرية تقوم على أسس عربية أصيلة .

وعلى إثر ذلك قام صراع بين القديم والجديد في محاولة النهوض بالسرديات العربية، فتمخض عن ذلك تأسيس فني لسرديات عربية حديثة في بداية القرن العشرين تلتها مراحل تطور وظهور أنماط شكلية و موضوعاتية من هذه السرديات- تساير كل فترة تاريخية عربية وعالمية.

و عرفت بلاد الشام استقطابا للعرب قبل حملة نابليون وذلك خلال القرن 16 خلال الحملات التبشيرية الدينية، وهذا ما ترك بصمة للثقافة الغربية في بلاد الشام قبل حملة نابليون بحوالي قرنين من الزمن؛ حيث عرفت بيروت وحلب المطبعة مما ترتب عنها أمورا كثيرة منها تراكم المعرفة بالإفادة من المطابع لأغراض تعليمية ومعرفية وليست دينية فقط وظهرت المدرسة المارونية عام 1584 وتخرج منها مئات الطلاب التحقوا فيما بعد بحملة نابليون كمترجمين وغيرها، وظهرت مدارس أخرى بعد المدرسة المارونية وانخرطت في الدور العلمي والثقافي واعتنت بالتأليف والترجمة.[2]

ويدقق الناقد عبد الله ابراهيم في البدايات الأولى لظهور الأشكال الفكرية والأدبية الحديثة ، فيرى أن الحملة الفرنسية على مصر رغم أنها أدخلت المطبعة إلا أن التحديث قد تأخر بنصف قرن، وذلك للظروف المفروضة في عهد محمد علي باشا الذي احتكر العلم على الطبقة الحاكمة، كما لم يكن

---

[1] السرديات جمع سرد ويعنى طريقة الإخبار والحكي، ووجد منذ القديم وفي المجتمعات شفويا ومكتوبا، بل يتعدى ذلك إلى كل الفنون التي من شأنها أن تقدم حكيا على طريقة ما، كما يتجلى في كل ما نقراه أو نسمعه، سواء أكان كلاما عاميا أم فنيا، فهو بذلك عام ومتعدد ومتنوع، ومنه تحددت الأجناس السردية الأدبية المعروفة قديما وحديثا كالأساطير والخرافات والحكايات الشعبية والمقامات والقصص والروايات، كما يمكن أن يتمثل السرد في طريقة حكي كل إنسان المختلفة عن طريقة حكي الآخر.

[2] ينظر عبد الله ابراهيم، السردية العربية الحديثة ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- بيروت، ط1، 2003، ص: 36،35،34

في التحديث الفكري مشروعا كبيرا بالنسبة له، لأنه اهتم بالبعثات العسكرية، إلى أن تغير الأمر في عهد إسماعيل باشا، حيث تزايد النفوذ الغربي وامتيازاته في مصر، كما ظهر التأثير الشامي الثقافي في الحياة المصرية، فظهرت الصحافة التي قامت بتنشيط الثقافية عام 1866. ويمكن تقسيم السرديات العربية إلى ثلاث مراحل نذكرها في الآتي:

أ- الأعمال المترجمة/ المعربة:

نشر الطهطاوي ترجمته لرواية **(فنيلون**) المسماة (وقائع الأفلاك في وقائع تليماك بعد مجيء إسماعيل إلى الحكم. [1]

عرّب محمد عثمان جلال نصوصا فرنسية ك**مآسي راسين** و **ملاهي موليير** الشهيرة وسماها "الأربع روايات من نخب التياترات" وعرّب رواية **بول وفيرجيني** واسماه بـ: "الأماني و المنة في حديث قبول و ورد جنة".

يعتبر المنفلوطي الرائد في هذه التجربة، حيث قدّم رواية **بول وفرجيني** باسم الفضيلة ، وقدّم قصصا قصيرة بعنوان النظرات و العبرات...

ومن أهم المترجمين في هذه الفترة مارون النقاش و أديب إسحاق ونجيب حداد الذي عرب مسرحية موليير "البخيل" و "روميو وجولييت" لشكسبير و أعطاه اسم "شهداء الغرام". وكل مترجم له طريقته في تكييف هذه النصوص الغربية مع الواقع العربي.

ب- الأعمال السردية القديمة:

ظهور المقامات بوجه خاص ونجد ذلك في مقامات البخشي و مصطفى البكري و ناصف اليازجي في كتابه مجمع البحرين، أحمد فارس الشدياق في كتابه "الساق على الساق فيما هو الفارياق" و"ليالي سطيح" لحافظ ابراهيم و" حديث عيسى بن هشام" لمحمد المويلحي ومقامات الهمذاني.

ظهور السير الشعبية الكبرى كالسيرة الهلالية وسيرة سيف بن ذي يزن، وسيرة الأميرة ذات الهمة، وسيرة الظاهر بيبرس وسيرة عنترة.

وضمن هذه السباقات التاريخية نشأت السرديات العربية الحديثة فيما بعد ، و كما نرى سياق مرتبط بالنهضة العربية الحديثة التي استفاقت على إثر التعرف على الحضارة الغربية وما تلاها من محاولات نهضوية للتراث العربي القديم .

ج- السرديات الحديثة والمعاصرة

- عوامل ظهور الأشكال السرية الجديدة:

- انفتاح مصر على العالم الخارجي ثقافيا و سياسيا مما جعل المؤثر الغربي فاعلا فيها بخاصة في مجال التأليف الفكري من طبع و ترجمة و تأليف و حرية الفكر و الصحافة و المسرح....كما كان هناك التأثير الشامي على ثقافة مصر.
- حركة التعليم في مصر و التي شهدت تحولا بطيئا حيث كانت مقتصرة على أبناء الحكم من الأتراك و الأجانب وكان تعليم أبناء مصر مقتصرا على الجانب الديني ممثلا خاصة في جامع الأزهر، ولم يحظ المصريون بالتعليم المدني إلا في وقت متأخر بعد ثورة عرابي 1882.
- تنشطت الصحافة، خاصة جريدة الوقائع التي كانت عهد إسماعيل تهتم فقط بشؤون الدولة وتوزع على الضباط والأعيان
- بدأ ظهور تعليم المرأة في الربع الأخير من القرن 19 وافتتحت مدارس مدنية حكومية أولها مدرسة الحكيمات خاصة بالتوليد سنة 1832، وأنشئت أول مدرسة للبنات عام 1873.
- بدأت ملامح المدنية الحديثة تظهر في مصر وظهرت معها معالم المؤثرات البورجوازية الغربية، خاصة مع قيام الانتداب الغربي على مصر وبلدان الشام.

---

[1] ينظر المرجع نفسه، ص: 32،33.

- ظهور نخبة في البلاد تتلقى الآثار الأدبية الغربية وازدهرت المسرودات في النصف الثاني من القرن 19.

كخلاصة يمكن القول، أن السرديات العربية الحديثة نشأت استنادا إلى مؤثرين اثنين: مؤثر الموروث السردي العربي القديم ، ومؤثر القوالب السردية الغربية الحديثة التي سرعان ما بدأ العربي يتعرف عليها عن طريق الترجمة التأليف، فظهر صراع بين أنصار البعث وأنصار التجديد.